القضايا الكبرى في الإسلام

١٤ - قتل سعيد ابن جبير

الأستاذ عبد المتعال الصعيدي

إذا أردنا أن نصل إلى ما يرضي العدل والإنصاف في هذه القضية الكبيرة، وجب أن يسير البحث فيها بقطع النظر عن شخصية المقتول وشخصية القاتل، لأنا إذا نظرنا إلى شخصية المقتول فسنجد أنه كما قال فيه خصيف: من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبير، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير. وسنجد أيضاً أنه كان كما قال فيه أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه.

وإذا نظرنا إلى شخصية القاتل وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، فسنجد الناس يكادون يجمعون على أنه كان ظالماً جباراً، وقد قال ابن خلكان: كان للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلها، ويقال إن زياداً أراد يتشبه بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ضبط الأمور والحزم والصرامة وإقامة السياسات، إلا أنه أسرف وتجاوز الحد، وأراد الحجاج أن يشبه زياد فأهلك ودمّر

وقد نظر الناس إلى هذه القضية متأثرين بشخصية سعيد وشخصية الحجاج فلم يوفقوا كل التوفيق فيها من الناحية القضائية، ولم يصلوا فيها إلى حكم يرضي القضاء كل الرضا، ولا يتأثر بعاطفة الحب والكره، وإذا خالفناهم في ذلك فسنصل إلى حكم في هذه القضية يرضي كل منصف من الناس، لأنه يراعي فيه كل وقائع القضية من ناحية الحجاج وسعيد، ويبين تبعة كل منهما في هذه الوقائع.

اضطرب أمر المسلمين بعد قتل عثمان رضي الله عنه اضطراباً كبيراً، ووقعوا في فتن شديدة كادت تقضي على الإسلام في مهده لولا أن الله كان يهيء لهم فترة من الاجتماع بعد التفرق، فيمضي الإسلام ظافراً في فترة الاجتماع، وينظر العقلاء إلى ظفره فيرضيهم ويجعلهم يغمضون أعينهم على ما في حكمهم من قذى حذراً من التفرق، وما يجلبه على الإسلام من أكبر الضرر، وقد جاء الإسلام بجواز ارتكاب أخف الضررين، وكانوا مع هذا يرضون الله بالنصح الرفيق، والبعد عن الاشتراك في ذلك الحكم، وكان من هذا الفريق الحسن البصري رضي الله عنه، وهو سيد التابعين وأكبر علماء عصره قدراً، فكان يبتعد عن وظائف الحكم منكراً له في صمت، ولا يقصر في توجيه النصح الرفيق للحكام، وقد شكا إليه الحجاج ما يجده في مرض موته فقال له: قد كنت نهيتك أن تتعرض إلى الصالحين فلججت. فقال له الحجاج: يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني، ولكن أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي، ولا يطيل عذابي. فبكى الحسن بكاء شديداً!

أما سعيد بن جبير فإنه لم يبتعد عن وظائف هذا الحكم،

ويصورهم كما هم؛ وهكذا نغمة المؤلف لا تصير سامية إلا عندما يضع صور أعاظم الرجال، وعندما يعرض أعظم الأعمال وأعظم الحركات، وأعظم الثورات. وفيما عدا ذلك يقاسي عناء أن يكون جافاً عابساً، ونغمة الفيلسوف تسمو في كل حين يتحدث فيه عن قوانين الطبيعة، والمخلوقات بوجه عام، وعن المكان، والمادة، والحركة، والزمن، والروح والنفس الإنسانية والعواطف والانفعالات؛ وفيما عدا ذلك يقاسي عناء أن يكون نغماً عالياً. ولكن نغمة الخطيب والشاعر، متى كان الموضوع عظيماً، يجب أن تكون سامية دائماً؛ لأنهم السادة الذين يجمعون إلى سمو موضوعهم سمو التصوير والحركة والتخييل [1] الذي يسرهم، ولأن من الواجب عليهم أن يصوروا الموضوعات ويفخموها — يجب أيضاً في كل حين أن يستخدموا كل قواهم وأن يشروا كل ما تستطيعه عبقريتهم.

أحمد أحمد بروى
مدرس بحلوان الثانوية للبنين

(١) يقصد بالتخييل أن يتوهم القارئون والسامعون أن للموضوعات العظمة التي يدعيها الشعر والخطابة.

فكان فى أول أمره كاتباً لعبد الله بن عُتبة بن مسعود ، ثم كتب لأبى بُردة بن أبى موسى الأشعرى ، وقد ولاّه الحجاج القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا : لا يصلح للقضاء إلا عربى . وكان سعيد مولى لبنى والبة بن الحارث ، وهم بطن من بنى أسد بن خُزيمة ، فاستقضى الحجاج أبا بردة بن موسى الأشعرى ، وأمره ألا يقطع أمراً دون سعيد بن جبير ، ثم جعله فى شُرَطه وكلهم من رؤوس العرب ، وكان الحجاج يعرفه من عهد ولايته على الحجاز ، وقد أعطاه فى أول ما رآه مائة ألف درهم يفرقها فى أهل الحاجة ، ولم يسأله عن شىء منها .

وفى سنة ثمانين من الهجرة جهز الحجاج جيشا لغزو رُتبيل ملك الترك ، وولى عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى ، وجعل سعيد بن جبير على عطاء الجند ، وكان الحجاج يبغض عبد الرحمن ويقول : ما رأيته قط إلا أردت قتله . وقد سمع الشعبى ذلك من الحجاج ذات يوم ، فأخبر عبد الرحمن به . فقال : والله لأحاولن أن أزيل الحجاج عن سلطانه . وكان عبد الرحمن ينتمى إلى ملوك كندة ، فيعتز بنفسه ولا يخضع للحجاج كغيره ، وكان يبطن التشيع لعلى رضى الله عنه كغيره من أهل الكوفة ، فأراد الحجاج أن يرسله فى تلك الغزوة النائية ليتخلص منه ويشغله بالجهاد وكان قد غزا رتبيل قبله عبيد الله بن أبى بكرة فى جيش كثيف فهلك فى تلك البلاد ، فسار عبد الرحمن حتى وصل إلى بلاد رتبيل فأوغل فيها ، وفتح كثيراً من حصونها ، فلما حاز من أرضه أرضاً عظيمة ، وملأ يده من الغنائم ، حبس الناس عن الوغول فى تلك الأرض وقال لهم : نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ، ونجترىء المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل ننتقصهم فى كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم ، وفى أقصى بلادهم وممتنع حصونهم ، ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله .

ثم كتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه من بلاد العدو ، وبما صنع الله للمسلمين ، وبهذا الرأى الذى رآه لهم ، فلما أتى كتابه إلى الحجاج كتب جوابه : كتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ، ويستريح إلى الموادعة ، فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم وإلا فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس ، فخله وما وليته . فكبر ذلك على عبد الرحمن ، ثم جمع الناس إليه ودعاهم إلى الخروج على الحجاج فأسرعوا إلى إجابته ، وكان أكثرهم من أهل العراق الذين يضمرون البغض لبنى مروان ، ولم يقتصروا على خلع الحجاج ، بل خلعوا بعده عبد الملك بن مروان ، ونادوا بعبد الرحمن أميراً عليهم وانقلبوا فى يوم وليلة يذكرون ظلم الحجاج ، وظلم عبد الملك بن مروان ، وكانت بيعتهم لعبد الرحمن : تبايعون على كتاب الله ، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم ، وجهاد المُحلين ، فإذا قالوا نعم بايع . ثم صالح رتبيل على أنه إن ظهر على الحجاج فلا خراج عليه أبداً ما بقى ، وإن هُزم فأراده الجأه عنده ، وكان سعيد بن جبير فيمن خرج مع عبد الرحمن وبايعه .

ولاشك أن من ينظر إلى هذه الوقائع يجد أن عبد الرحمن لم يخرج على الحجاج غضباً لله تعالى ، وإنما خرج غاضباً لنفسه حين كتب إليه الحجاج يرميه بالعجز والضعف ، ويولى مكانه أخاه إسحاق ابن محمد ، وقد دفعه الغرور بنفسه إلى هذا الخروج وهو ليس بأهل لما نصب نفسه له من الإمارة على المسلمين ، وقد كان يوجد من الصحابة والتابعين فى عصره من لا يذكر بجانبهم ، ومع ذلك آثروا السكون للمصلحة ، ورأوا أن الإسلام فى حاجة إلى فترة من الهدوء بعد تلك الفتن ، ولقد أساء عبد الرحمن إلى الإسلام حين صالح رتبيل ذلك الصلح الشائن ، وعمد إلى السيف الذى كان يجب أن يُصوَّبه إليه فصوبه إلى رقاب المسلمين ، وأعادها فتنة عمياء كتلك الفتن التى لا يزال الإسلام يجنى آثارها إلى اليوم ، ولكن الغلطة غلطة الحجاج حين يولى عبد الرحمن هذه الإمارة وهو لا يثق به ، ويعرف أنه لا يخلص لأهل دولته ، وقد نصحه إسماعيل بن الأشعث فقال له : لا تبعثه ، فوالله ما وصل جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً ، وإنى أخاف خلافه . فقال الحجاج : ليس هناك ، هو لى أهيب ، وفىّ أرغب ، من أن يخالف أمرى ، أو يخرج من طاعتى .

وكان على سعيد بن جبير أن يعرف كل هذا ، وأن يذكر كل ما كان بينه وبين الحجاج ، وألا يجر نفسه وراء أطماع عبد الرحمن

فى الإمارة والملك ، وهو رجل عالم صالح لا أطماع له فى مثل ما يطمع فيه ، ولا يليق به أن يستخدمه مثله فى أغراضه ، وما كان أجدره أن يبعد عن الحجاج كما بعد عنه إخوانه من العلماء ، وأن يترفع عن وظائفه وأمواله كما ترفعوا عنها ، حتى لا يكون له حجة عليه فى يوم من الأيام ، ولا يؤاخذه بها إذا لم يقم بواجب الإخلاص له عليها

وقد جرت حروب شديدة بين الحجاج وعبد الرحمن ، ذهبت فيها دماء غزيرة من المسلمين ، ولو أنها وجهت إلى رتبيل لاستفاد منها الإسلام ، وانتفع منها المسلمون ، ثم انتهت هذه الحروب بانتصار الحجاج ، ففر عبد الرحمن إلى رتبيل يطلب أمانه على ما كان بينهما من الصلح ، وهرب سعيد يتنقل فى البلاد إلى أن قصد مكة ، فكان هو وأناس أمثاله يستخفون فلا يخبرون أحدا أسماءهم ، فلما ولى خالد بن عبد الله القسرى مكة قبض عليهم وأرسلهم إلى الحجاج ، وكان لا يعفو عمن خرج مع عبد الرحمن إلا إذا قال له : أتشهد أن قد كفرت ؟ فإذا قال نعم عفا عنه وإلا قتله ، وهو يرى فى ذلك أن من يخرج على الإمام يكون كافرا ، لأنه ورد فى بعض الأحاديث أن من مات ولا بيعة فى عنقه مات ميتة جاهلية ، وقد أخطأ الحجاج فهم ذلك الحديث ، لأن معناه أنه يموت على مثل ما كان الناس عليه فى جاهليتهم ، إذ لم يكن لهم إمام يجمع كلمتهم ، وليس معناه أنه يكون كافرا مثلهم .

وكانت مواقف حرجة قتل فيها كثير من العلماء الذين كبر عليهم أن يشهدوا على أنفسهم بالكفر ، وكان لبعضهم لباقة أنقذته من ذلك الموقف الحرج ، كما فعل الشعبى وقد أشار عليه إخوانه ونصحاؤه أن يعتذر أمام الحجاج ما استطاع من عذر ، فلما دخل عليه رأى غير ما ذكروا له ، فسلم عليه بالإمرة وقال : أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق ، وايم الله لا أقول فى هذا المقام إلا الحق ، قد والله مردنا عليك وحرضنا وجهدنا ، فما كنا بالأقوياء الفجرة ، ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا ، وأظفرك بنا ، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إليه أيدينا ، وإن عفوت عنا فبحلمك ، وبعد فالحجة لك علينا . فقال له الحجاج : أنت والله أحب إلىّ قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ، ثم يقول ما فعلت ولا شهدت ، قد أمنت عندنا يا شعبى فانصرف .

ولم يكن لسعيد بن جبير مثل لباقة الشعبى ، بل اضطرب أمره حين وقف أمام الحجاج ، ولم يلتزم طريقا واحدا ينفعه فى هذا الموقف الحرج ، مع أن الحجاج قد لوّح له بأنه يحب أن يعفو عنه ، فإنه حين رآه قال : لعن الله ابن النصرانية — يعنى خالداً — أما كنت أعرف مكانه ؟ بلى والله والبيت الذى هو فيه بمكة . ثم أقبل عليه فقال له : يا سعيد ، ألم أشركك فى إمارتى ؟ ألم أفعل ؟ ألم أستعملك ؟ قال : بلى . قال : فما أخرجك علىّ ؟ قال : إنما أنا بشر يخطىء مرة ويصيب مرة . فطابت نفس الحجاج ونطلق وجهه ، ورجا أن يتخلص من أمره ، ثم عاوده فى شىء فقال له : إنما كانت بيعة فى عنق . فغضب الحجاج وانتفخ حتى سقط أحد طرفى ردائه عن منكبه ، وقال : يا سعيد ، ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير ، ثم أخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : بلى . قال : ثم قدمت الكوفة واليا على العراق فجددت لأمير المؤمنين البيعة ، فأخذت بيعتك له ثانيا ؟ قال : بلى . قال : فنكثت بيعتين لأمير المؤمنين ، وتبقى بواحدة للحائك بن الحائك ، والله لأقتلنك . قال : إلى إذن لسعيد كما سمتنى أمى . فأمر به فضربت عنقه ، وإياه عنى جرير بقوله :

يا رُبَّ ناكثِ بيعتين تركتَه ... وخضابُ لحيته دَمُ الأوداج

وقد كان على سعيد وقد اعترف على نفسه بالخطأ فى خروجه على الحجاج أن يمضى فى ذلك حتى يحقن دمه ، وقد قال الله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وما كان له بعد هذا أن يعتذر ببيعته لعبد الرحمن ، لأنه قد اعترف بخطئه فيها ، ولا معنى بعد هذا للاعتذار بها .

وإذا كان سعيد قد أخطأ تلك الأخطاء فى هذه القضية ، فإن خطأه فى أنه لم يتورع عن ذلك الحكم الجائر كما تورع غيره من العلماء ، وفى أنه أخطأ الطريق فى إنكاره فغلا فيه ووضع يده فى يد من لم يكن مخلصاً فى إنكاره ، ولعله أراد بذلك أن يكفر عن عدم تورعه عنه فى أول أمره ، ولكن تلك الأخطاء بالغة مابلغت لا تبلغ خطأ الظلم نفسه ، فكان على الحجاج أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب سعيدا ، وأن يعرف أن ظلمه هو الذى أوقع سعيداً وغيره فيما وقعوا فيه ، ولو أنه فعل ذلك لأراح نفسه وأراح الناس جميعاً .

عبد المتعال الصعيدى